

مقتبسات من ابن إياس

المقتبسات المختارة هنا منقولة بنصها للقارىء ، من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مع تشریح الفقرات فى كل مقتبس منها بكثير من علامات الفصل والوصل والترقيم .

وأول هذه المقتبسات فاتحة أخبار سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، وهى السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى ، حين تم أمر هذا السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، فأخذ فى إعلان أسماء الموظفين لحكومته . أما منبع اختيار هذه الصفحات ، فهو احتواؤها على تصوير استاتيكي شامل لجميع كبار الموظفين فى السلطنة المملوكية الجديدة ، قبل أن يتحركوا فى دوائر وظائفهم المختلفة ، وهو تصوير يقف بالقارىء ويستوقفه ، ليرى منه لنفسه أن مصر المملوكية لم تكن للمصريين ، من قريب أو بعيد ، بل كانت لفئات من الممالك الأجنب المسيطرين بأسمائهم وأسماء زوجاتهم ، وزطاناتهم التركية وغير التركية ، على جميع شؤون البلاد الإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

ويتلو هذا التصوير جملة من أخبار السلطنة المملوكية ، صغيرها وكبيرها ، وبعضها سياسى ، وبعضها اقتصادى أو غيره ، حسبما اتفق من الترتيب الزمنى المطلق ، سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، ويوماً بعد يوم ، وهو ما تجرى عليه كتب الحوليات التاريخية فى جميع اللغات الشرقية والغربية فى العصور الوسطى .

والمقتبس الثانى أخبار جاءت من مكة إلى القاهرة مع مبشر الحاج ، أواخر سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ، وهى تصف لأول مرة ، وفى قليل من التفصيل ، جميع أعمال البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر ، منذ مجيء السفن البرتغالية من غرب أوربا إلى تلك الجهات ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أى منذ عشر سنين قبل وصول هذه الأخبار الموجزة إلى القاهرة . ويبدو من هذه الأخبار التى أوردها ابن إياس ، عرضاً ضمن أخبار مكة والمحمل المصرى السنوى ، أن المعلومات الجغرافية المملوكية بصدد البرتغاليين وأهدافهم واتجاهاتهم كانت حتى وقتذاك ضئيلة قليلة جاهلة ،

وأن إفاقة السلطنة المملوكية للخطر البرتغالي على شرايينها التجارية الواصلة وقتذاك إلى الهند جاءت متأخرة ، وكان تأخيرها هذا سبباً من عديد الأسباب التي أنزلت بأسطول مملوكي كبير هزيمة بحرية مشهورة ، على أيدي البرتغاليين في المياه الهندية ، شمالي بومباي الحالية ، كما أنزلت بجيوش مملوكية بقيادة السلطان قانصوه الغوري نفسه هزيمة أكثر شهرة ، على أيدي العثمانيين ، وهي هزيمة مرج دابق شمالي حلب الشام .

والمقتبس الثالث بيان وصفي لهزيمة مرج دابق ، وهي الهزيمة التي ختمت بخاتم الانهيار على السلطنة المملوكية في مصر ، وافتتحت بها السلطنة العثمانية سلسلة انتصاراتها الزاحفة عبر الشام إلى مدينة القاهرة ، حيث أعلن السلطان سليم العثماني نهائياً أن مصر باتت ولاية تابعة للعثمانيين . وفي مطلع هذا المقتبس تصوير للجيش المملوكي ، وعلى رأسه السلطان قانصوه الغوري يرتب الصفوف استعداداً للحرب والقتال ، وكأنه وحاشيته وقادته في موكب العودة من انتصار مملوكي كبير ، أو احتفال بمولد من موالد الأولياء الصالحين ، أو يوم الخروج لصلاة أحد العيدين . غير أنه لم تكن بضع ساعات حتى صار ذلك الموكب الاستعراضى الحافل مركزاً دارت حوله معركة حامية دامية ، بدأت بمأساة سقوط السلطان قانصوه الغوري ميتاً بالفالج في الميدان ، وانتهت بمأساة انهزام الجيش المملوكي ورجوعه القهقري مفلولاً مكسوراً إلى حلب ودمشق ، ثم إلى القاهرة .

والمقتبس الرابع ترجمة طويلة للسلطان قانصوه الغوري ، بعد وفاته في مرج دابق ، وهي ترجمة تحليلية ناقدة لأعمال هذا السلطان ، وصفاته الشخصية وسياسته . ويبدو واضحاً من نعمة هذه المقتبس أن ابن إياس لم يكن من المعجبين بالسلطان قانصوه الغوري ، وأن محاسن هذا الرجل لم تكن في نظره شيئاً بالقياس إلى مساوئه . غير أن ابن إياس لم يكن منصفاً في هذا التقدير ، لأنه أغفل فيه أن هذا السلطان الطاعن في السن اعتلى دست السلطنة في دولة نخرت فيها عوامل الاحتضار والزوال منذ سنين ، وربما كانت الرغبة في مقاومة هذه العوامل هي التي أدت بهذا الرجل الطيب القلب إلى اتخاذ ما اتخذ من إجراءات إنقاذية مالية تعسفية كثيرة .

والمقتبس الخامس قائمة بأسماء بعض الأمراء المماليك والقضاة ، و كبار الموظفين والمهندسين والتجار، وأساتذة المهن والحرف والصناعات، من المصريين وغير المصريين ، ممن قرر السلطان سليم الأول العثماني إخراجهم من القاهرة ونفيهم إلى إسطنبول ، لأسباب متعددة ، وربما كانت الوطنية المصرية أحد هذه الأسباب . وتبلغ هذه المجموعة نحو مائة من الرجال ، ولكنها تبلغ أكثر من ذلك ، سواء من ناحية الكم العددي ، أو الكيف الفنى ، بدليل ما أورده ابن إياس فى كتابه ، قبل هذه القائمة وبعدها ، من أسماء خرج أصحابها منفيين من القاهرة إلى إسطنبول . فضلا عن أن هذه الأسماء ما تقدم منها وما تأخر ، اشتملت فى الواقع على مجموعة المهارات الإدارية والصناعية التى اقتلعها العثمانيون من مصر ، ليفيدوا منها فى بناء عمائرهم التى تزدان بها إسطنبول الحالية . ولم تكن هذه الخسارة أول الخسائر المصرية أو آخرها ، بسبب الاستيلاء العثماني على مصر ، وهى تدل فيما تدل على أن مصر فقدت وقتذاك السيطرة على مستقبلها القريب والبعيد ، وذلك لمدة أربعة قرون مظلمة ، وتناول منها كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ما يزيد عن خمس سنوات قصيرة ، أى حتى سنة ٥٩٢٨ (١٥٢٢م) ، وهى السنة التى التى توفى فيها محمد أحمد بن إياس .

المقتبس الأول

فاتحة أخبار السنة الثالثة

من عهد السلطان قانصوه الغورى

ثم دخلت سنة ثمان وتسعمائة ، فيها فى المحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين إبراهيم بن أبي شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفي ، والقاضى البرهان إبراهيم الدميرى الملكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى السلطنة، وثبتت قواعد دولته، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدم ألف ، منهم أرباب الوظائف، وهم الأتابكى قيت الرجبى أمير كبير ، وقرقماس من ولى الدين أمير سلاح ، وأصطدر من ولى الدين أمير مجلس ، وقانى باى قرا من ولى الدين أمير آخور كبير، وطراباى الشريفى نوبة النوب ، وأزدمر من على باى دوادار كبير ، وخاير بك من ملباى حاجب الحجاب ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف ، وهم خشكلى البيسى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه بن سلطان جر كس المعروف بابن اللوقا، والأمير سودون العجمى ، وماماى المحمدى المعروف بجوشن، وأنصبابى من مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلاى نائب القلعة ، وطقطباى من ولى الدين ، وهو الوزير والأستادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه من طراباى المعروف بكرت، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك من طراباى المكحل ، ونوروز من أزبك أخو يشك الدوادار ، وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشك الذى كان

نائب غزوة ، وخاير بك السيفي اينال كاشف الغريبة ، وجانبلاط المحمدي أخو قانصوه البرجي . انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر (السلطان) من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميراً ، منهم أرباب الوظائف عشرة ، وهم عبد اللطيف الزمام والغازندار الكبير ، والمقر الناصري محمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثاني ، ومغلباي الشريفى الزرد كاش الكبير ، وتمراز جوشن رأس نوبه ثاني ، وجان بردى تاجر المالك ، وطومان باي قرا حاجب ثاني ، وقلج من ولى الدين أمير آخور ثاني ، وتانى بك من يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثاني ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان من قراجا ، وقانصوه من دولات بردى أستاذار الصحبة ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف ، فهم قرقماس الشريفى ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلى من ولى الدين بتقدمة ألف ، وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لها ذلك من بعده ، وآل أمرها إلى إمرة طبلخاناه ، وأزدسر من يشبك ، وخشكلى من ولى الدين ، وقانصوه من برد بك ، وجانى بك من أزدسر ، وبرسباي العلاى ، وطخ المحمدي الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الإبراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك من تبوك ، وبرقوق من خيجا بردى ، وشاد بك الناصرى ، وجانباي المحمدي ، وجان بلاط من ولى الدين أيضاً ، وقرقماس من يشبك ، وتمرباي من سيدباي ، وبك بلاط من أقباي ، وقانى باي من يشبك ، وجانم الإبراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصر باي الشريفى وطومان باي من طوبزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط من حيدر ، ومامش الرجبي ، وكرتباي من حيدر ، ومغلباي من محتجا ، وجان بلاط من قانصوه ، وأصطمر من بشان ، وقانى باي من أزدسر ، وسودون من مصطفي ، والماس من برد بك ، وقنك من شاد بك ، وجانم من خضر ، وجان بردى من قائم ، وبرسباي الدمرداشى ، وتمر الإبراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتم من شاد بك ، وماماي من قيت ، وقانصوه من يشبك ، وقان بردى من قانصوه وأرزك من برد بك ، وتمرباي السيفى قجاس خازندار العادل طومان باي ، وجانم من قانصوه ، ومسايد من حيدر ، وبرش من عبد الكريم ، ومسايد أيضاً من قانصوه ، وجانى بك قرا الشريفى ، وطرا باي الشريفى ، وقايتباي من

جاني بك المعروف بالأشقر ، وشادي بك اليحياوي ، وقانصوه من يشبك ،
وتاني بك السيفي أقبردي ودولات باي من مصطفى ، وقاني من سودون
الإبراهيمي ، وجانم من قجاس وطرا باي من جانم ومغلباي من جانم ومصر باي
الأبو بكرى ، وجاني بك من حيدر ، انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر السلطان الأمراء العشرات مائة وخمسة وثمانين أميراً ، وهم عنبر
مقدم الممالك ، وخشكلى الشريفي وتبك الناصري وأسنباي من برسباي وقرا كز
الشريفي وجاني باي من يشبك وبكتمر من ولي الدين وسنقر العلاي وقلج
السيفي قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفي قايتباي ، وأسنباي من قروس ، وطقطمش
السيفي إينال ، وسيباي الأبو بكرى ، وإينال من جانم ، وقانصوه الإبراهيمي
وسودون من حيدر ، ويوسف من مصطفى ، وعلان من ولي الدين ، وأقبردي
الحسنى وقنبك الشريفي وبهادر من قرقاس ، وأزدمر من عبد الرحيم ويبردي
من جانبلاط وبرد بك الشريفي ، ويبردي من كسباي وأركاس السيفي قانصوه
وبكباي من قراجا وطهاي باي من مصطفى ، وأقبردي الشريفي وإينال باي من
مصطفى وخاير بك من قجاس ، وجاني بك من مهدي وأقباي السيفي يشبك وطوبى
الناصرى ورسباي من برد بك وبكبلات المحمدى ، وأزدمر من تمر باي وناق
من بنخشاى ونوروز من يلباي وشاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص وجانم
السيفي قايتباي ونوروز السيفي قاني باي وقنبك السيفي يونس ودولات باي
الإبراهيمي ، وجاني باي الحسنى وسنطباي المحمدى وتغرى بردى الشرفى
ودولات باي السيفي يشبك وجاني بك من جانبلاط وأزدمر السيفي أينال وقانم
من تاتق وقنبك من قاني باي أمير جندا ، وقصروه من قانصوه ، وتغرى بردى
الترجمان ، وقرقاس المحمدى ، وجان بردى من ولي الدين وتغرى بردى الحسنى ،
وأزدمر المهتمندار ، وأزبك النصرانى أمير شكار ، وقانصوه من أبى يزيد ،
وقنصوه الناصرى ، وأبرك السيفي لاجين ، وبلباي من على باي ، وأبو يزيد من
قانصوه ، ومغلباي من أياس ودولات باي المحمدى وقانصوه من جانم وناق
من أنت ، وتبك من أزم ، وقطلو باي من عبدالرحيم ، وقاني باي من أزم
وقرقاس الإبراهيمي ، وأزبك من قانصوه ، وماماى من قييد ، وجانم من قجاس ،
وقانصوه العلاي ، وقلج الشريفي ، وعلى باي من صدقة ، ونكبلات من قانصوه

وإياس المحمدي وقانصوه من يشبك، وبرسبای من جانی بك، وقانصوه من عبد الرحيم، وطرابای السيفی أزبك، ونوروز العلاي وملاج من برد بك، وبرسبای السيفی يشبك، وجانی باي الحسنی وكريم بردی من قروس، وأزبك من مصطفى وقانصوه من جابلط، وقرقماش الشریفی وتمر من ولی الدين ودولات باي من أزبك وأزبك الشریفی، وكان بلا من مغلبای، وبكباي السيفی أزبك، وتغری بردی المحمدي، وتبك المحمدي، وبرد بك السيفی، وقانی باي، ويبرس من قرقماش وأركماش الإبراهيمی، وأركماش السيفی أزبك ويوسف البدي كاشف البحيرة وهو الوزير الآن، ويبرس من يشبك وخاير بك العلاي، وأقبای من يشبك وتبك من أياس، وجانم من يشبك، وقانصوه من جانم ومصر باي من لاجين وخاير بك الشریفی وجانم المحمدي وعلي باي السيفی خشكلدي وجانی بك الناصري كاشف منفلوط وجانبلط الشریفی قوان بردی الشریفی وأزبك الإبراهيمی وقانم من كرتباي وتغری برمش السيفی كسبای وأبرك الشریفی وجانم من مصطفى وأقيردي من قليج وأقطوه من قانصوه ويوسف من مصطفى وقانصوه من عبد الرحيم وتمر باي من حكم ويسق اليوسف وأقطوه من يشبك وبرسبای من قراجا وجان بردی من مصطفى وتم من قانی باي واقيردي المحمدي أيضاً وبرمش من يبردي وبرد بك من أيدكي وأسنبای من برد بك وقطلو باي من تمر وقايتباي من طوبرزه، وكرتباي السيفی يشبك، وقان بردی من قجماش وأركماش السيفی قانصوه وتم السيفی أرغون شاه، وقرا كز السيفی حكم، وبكبلط الأبريكي ونوروز من الماس وبرد بك السيفی يشبك وأينال السيفی أزبك وقانصوه من درويش وتمر از من اينال باي وخشكلدي من أركماش، وقيت من حيدر، وقانی باي الرمضاني، وجانی بك من ولی الدين، والماس من قردمش وتمر باي السيفی أزبك، وجان بلط من جانم، ومغلبای من قيت وتمر از من أقبای وقرقماش السيفی برد بك ومامش المحمدي وعلي باش السيفی اينال، وبرد بك الإبراهيمی، وسودون من درويش، ومغلبای اليوسفی وأيدكي الشريف وشاد بك من قانصوه وسيباي من جانی بك، وجانی باي المحمدي، وقانصوه من قانی باي، وقانصوه من ولی الدين أيضاً، وطراباي من قانصوه، ويبرس من قانصوه، وخدا بردی الشريف، وشاهين معلم الدبوس، انتهى العدد من ذلك .

واجتمع في هذه السنة من الخصاصكية ثمان مائة خاصكى على ما قيل ثم تزايد عدد الخصاصكية فيما بعد حتى صاروا ألف ومائتى خاصكى .

أما النواب بالبلاد الشامية، فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة ، وهم قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وسيدباى المعروف بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وقرر جانم فى نيابة حماة ، وقرر دولاتباى قرابة العادل فى نيابة طرابلس، وكان قبل ذلك نائب الشام ، وفر ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدوادارى فى نيابة صنفد ، وقرر فى نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك، وهو الان مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس، وقرر أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الإسكندرية قانصوه خمسمائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك، وانتقلت النيابات إلى آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، وهم القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى يحيى الدين عبدالقادر القصروى ناظر الجيش كان، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الإسطبل الشريف ، ومتحدثاً فى جهات الخصاص يومئذ ، من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخصاص علاى الدين بن الإمام، وهذه تانى ولاية، وقد راج أمره فى هذه المرة إلى الغاية ، وكان يومئذ القاضى نحر الدين بن العفيف كاتب الممالك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسامى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط ابن تقي الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النايسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العيسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين بن الإنباى، وشريكه يوسف

ابن السيرجى . أما الوظائف التى غير هؤلاء فكان ، نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى . انتهى ذلك .

فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ، ثم انتقلت من بعد ذلك للإمرات والوظائف إلى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين ، يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ، ولا حضر المبشر ، فكثرت القيل والقال بسبب ذلك . فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هجان ، وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة إلى الغاية ، وإن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحيى بن سبع أمير الينبع ومالك بن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى إبراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابع ، قبل أن يدخلوا إلى الينبع ، فنهبوا الركب عن آخره وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا مالا فعله تمر لنك لما دخل إلى الشام .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ثم انقطعت أخبار الحاج مدد طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه الموافق لرباع مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا ، ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى ، وزاد عن الوفاء أحد عشر أصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع الموافق لسابع عشرين المحرم وهو سابق على النيل الماضى بيوم واحد ، والفضل سبعة عشر أصبعا عن النيل الماضى . فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبي ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة ، ثم فى يوم السبت ثانيه دخل المحمل إلى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر من ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص

بك ، ودخل الحاج وهو في غابة النكد ، بسبب ماجرى على الناس في طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج ، وهو ما استفاض بين الناس ، أن أصطمر أمير الحجاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة ، لاقاه الجازاني من هناك ، فأحضر إليه أصطمر خلعة وقال له أكنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار ، فقال الجازاني نعم أنا احمل للسلطان هذا القدر ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك ، وجرى منه أمور شتى تم إن اصطمر أرسل في الدس مكاتبة للشريف بركات اخى الجازاني بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازاني ، فلما أحس الجازاني بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو ، وكان اصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازاني لاقى الركب الشامي في رابع ، وجرى منهم ماتقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء ، فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك اضطربت الأجوال إلى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازاني وعرب بنى إبراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال اصطمر للشريف بركات أخرج معنا ولاقي الجازاني ، فلما خرج الشريف بركات صحبه الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة ، فلاقاه أخوه الجازاني في جمع كثير من عرب بنى إبراهيم ، فأرسل الجازاني يقول لأصطمر : لا تدخل بيني وبين أخى ودعنا نقتتل في بعضنا ، وخذ أنت الحاج وامض ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك ، ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع ، وصار عونته مع الجازاني ، فاتفقوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطمر بينهم ، ونادى في الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عونته على قتال الجازاني . فاجتمع الجم الفقير من الجمالة العكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وآل الأمر إلى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير الغامان والطفش . وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل في ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن ، وأخذوا عصايبهن من على رؤوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه ، وتخلف غالب الحاج بالينبع ، وصاروا ينزلون في مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعد مدة طويلة وهم في

أنحس حال . وقاسوا في هذه السنة غاية المشقة ، وجرى عليهم كل سوء . —
وقيل إن الجازاني لم يفحش في حق من باركب الأول، كما فعل بمن في ركب
المحمل وقد راعى الناصري محمد ابن خاص بك دون أصطمر، وكان متأثراً من
أصطمر . فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه
الجازاني ، فلما رجع من بقي من الحجاج إلى الأزمن وجدوا الآبار قد ردمت
بالحجارة ، فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش . فلما وصلوا بالحجاج إلى العقبة
لاقاهم جماعة من عربان بني لام، فعوقوهم عن طلوع العقبة . وأفردوا عليهم ثلاثة
آلاف دينار. فنجي أمير الحاج ذلك من الحجاج ودفعها للعرب حتى مكنوهم من
طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم في أسوأ حال ، فلما طلع الأمير
أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك إلى القلعة، ووقفوا بين يدي السلطان
وبنحها بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازاني وابن سبع ، ثم رسم
بإدخال أصطمر إلى قاعة البحرة ورسم أيضاً على الناصري محمد بن خاص بك
ووكل به، ثم أرسل بالقبض على قاضي القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة ووكل
به، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع وأيقظه بأن السلطان
يقصد القبض عليه فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل . وكذلك قبض السلطان
على أزدمر المهمندار. قيل أن يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار
لكل واحد منهم ذنب. واستمر الحال على ذلك .

وفي الثلاثاء خامس صفر توفي جان بلاط المحمدي أحد مقدمى الألو ف ،
وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن في تربة أخيه خاير
بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته فى التقدمة يسيرة ومات
عقيب ذلك .

وفي تاسع صفر رسم السلطان بإخراج أصطمر منفيماً إلى نغر دمياط ،
فنزل من القلعة بعد العشاء وتوجهوا به إلى البحر؛ وسار فى مركب إلى دمياط،
وهو مقيد بقيد ثقيل .

وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة، فرسم السلطان بنفيه إلى قوص ،
وكان بيت نقيب الجيش هو وأزدمر المهمندار، فشفع فىهما الأتابكى قيت الرجى،
ثم بعد أيام أخلع السلطان على القاضى عبد البر، وأعادته إلى القضاء على عادته .
(م ١٤ — المجلة التاريخية)

وشفع في أزدهر المهمندار أيضاً - وأما الناصري محمد بن خاص بك فإنه أقام في التوكل مدة أيام، وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح، وتسلمه من السلطان وشفع فيه حتى حط عنه خمس آلاف دينار. واستمر الناصري عند قرقماس في الترسيم نحواً من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال وأتى إلى بيته وحصل له غاية الضرر.

المقتبس الثاني

أخبار أعمال البرتغاليين

في المداخل الجنوبية للبحر الأحمر

وفيه حضر مبشر الحاج، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع توجه إلى مكة ووقف بالجبل، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة، وإن مكة مغلقة.

وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند، وإن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وسور، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن، فسر السلطان لهذا الخبر، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد، وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركبا، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة، ويأخذون مامعهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأزر من مصر وغيرها من البلاد.

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الإسكندر بن فليس الرومي، وكان هذا نقبا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم، فلأزالوا الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح، وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد.

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد، ولم يقع بها في سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة.

وفي هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى أبو المرافع ، وقال له أنا ألتزم لك بمائتي وخمسين ألف دينار أستخلصها لك ممن أعرفه ولا، تنتطح في ذاك شاتان . فقال السلطان إلى كلامه، وقصد أن يخلع عليه، وشرع في ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك، فرجع والله الحمد .

المقتبس الثالث

وصف هزيمة الجيوش المملوكية في مرج دابق

وفي يوم السبت سادس شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت، وزلزلت لها الأقطار ، وما ذلك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين ، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق إلى أن حصر مغلباي دوادار سكين، وهو في حال النحس ، بزمت أقرع على رأسه ، وهو لابس كبر عتيق دنس ، وراكب على إكديش هزيل ، وقد نهب بركه وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبي من الصلح ، وقال له : قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق ، وأخبر أنه وضعه في الحديد، وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه، وقاسى منه من البهدة مالاخير فيه . فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقبل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك في نظير ماذهب له .

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه صلب الظهر ، وركب وخرج من ميدان حلب : يوم الثلاثاء في العشرين من رجب ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حرية وطبول وزمور ونفوط حتى رجعت لهم حلب ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان ، فبات بها .

فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرين رجب، رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب، وهو يوم نحس مستمر، فما يشعر إلا وقد دهشته عساكر سليم شاه بن عثمان. فصلّى السلطان صلاة الصبح، ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام. فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة، وملوطة بيضاء وعلى كتفه طبر، وصار يرتب العسكر بنفسه. فكان أمير المؤمنين عن يمينته وهو بتخفيفه وملوطة، وعلى كتفه طبر مثل السلطان. وعلى رأسه الصنجق الخليفة. وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رؤس جماعة أشراف. وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه. وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم: خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر، والسادة الأشراف القادية ومعهم أعلام خضر، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفتى، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود. وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك ابن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر. وكان الصنجق السلطاني واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً، وتحتة مقدم المماليك سبيل العثماني والسادة القضاة، والأمير تمرالزرد كاش أحد المقدمين. وكان يمينته العسكر سيباى نائب الشام، وعلى اليسرة خاير بك نائب حلب.

فقبل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب، فهزموا عسكر ابن عثمان، وكسروهم كسرة مهولة، وأخذوا منهم سبعة صنماجق، وأخذوا المكاحل التى على العجل ورماة البندق. فهم ابن عثمان بالهروب، أو بطلب الأمان، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان، وكان النصر لعسكر مصر أولاً، وياليت لو تم ذلك.

ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان: لا تقاتلوا شياً واخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال. فبينما هم على ذلك وإذا بالatabكى سودون العجمى قد قتل فى المعركة، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام، فانهزم من فى اليمين من العسكر. ثم إن

خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جر كس، وقيل قتل . ويقال أن خاير بك نائب حلب كان موالساعلي السلطان في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر ، فصار السلطان واقفاً تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : يا أغوات هذا وقت المروءة ، قاتلوا وعلى رضاكم ، فلم يسمع له أحد قولاً ، وصاروا يتسحبون من حوله شيئاً بعد شيء ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر . فهذا وقت دعاكم ، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق في قلبه جمر نار لا تطفى . وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال .

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، فخاف الأمير تمر الزرد كاش على الصنجق ، فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج بنفسك ، واهرب إلى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج ابطل شقيقه وأرخصى حنكه ، فطلب ماء فأتوه بما في طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً ، وألقت فرسه على أنه يهرب ، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ، ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت ممرارته وطلع من حلقه دم أحمر . وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود . وسقط عن فرسه ، ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة .

فلما أشيع بموته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلاء ، فكأن الارض قد انشقت وابتلعتة في الحال ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فد اسوا العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغوري على لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير ، بعد ماتصرف في ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فإنه ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكانت الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك .

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم الأتابكي سودون العجمي وبيبرس قريب السلطان وأقباى الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جر كس ، وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صنف وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طلبخانات وعشرات وخاصكية وأكثر من قتل من عسكر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية ، فكأنهم خشب مسندة وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً . وقتل في ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصري ، وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك في موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويزوب لسطوتها الحديد ، فصهار في مرج دابق جثث مرمية ، وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة في التراب قد تغيرت محاسنها . وصار في ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ ، وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

المقتبس الرابع

السلطان قانصوه الغورى

فى تقدير المؤرخ محمد أحمد بن إياس

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغورى ، فإنه خرج من القاهرة يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذ الكلمة وافر الحرمة إلى أن دخل حلب وأقام بها ، وأرسل إليه ابن عثمان عدة قصاده، وهو تارة يظهر الصلح وتارة يأبى ، والسلطان مسلوب الاختيار معه فى جميع ما يرسل يقوله له ، ويخلع على قصاده الخلع السنية، وينعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، إلى أن حضر مغلباى دوادار سكنبندى الذى كان أرسله إلى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده، وهو فى غاية البهدة كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آلة الحرب اللبس الكامل ، فشق ذلك على ابن عثمان وبهده . فلما حضر إلى عند السلطان، وأعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح ، فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان قد أوصل إليه ، فنادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة ، وهم كالنجوم الزاهرة، من آلة السلاح والخيول الغابرة، وكل فارس مقوم بألف راجل من عسكر ابن عثمان . فتوجهوا إلى مرج دابق، ونزلوا به ، فأقام السلطان بمرج دابق إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب من هذه السنة .

فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور، وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه إلى قتال ابن عثمان، فكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله تعالى هذا الأمر وعادت الكسرة على عسكر مصر .

فلما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يرجع إلى حلب ، فلما ألفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتراه سارقة من الرجفة ، فأغمى عليه ، فسقط من على ظهر فرسه إلى الأرض ، فطلعت روحه فى تلك الساعة، وهو

ملقى على الأرض ، فرجعت عليه عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان والسهلجدارية والماليك ، وتركوها جثته على الأرض ، فكان آخر العهد به ، ولم يُرد له جثة ولا رأس ، ولا يعرف له مكان فكانما ابتلعت الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب أنه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، فصار مرمياً في البراري ، وقد تناهشته الذئاب والتمورة ، فمات وله من العمر نحو ثمانى وسبعين سنة . ومن العجائب والغرائب ، أن الطواشى مختص ، الذى كان بنى أساس مدرسة الغورى أولاً وأخذها منه (الغورى) غصباً في المصادرة ، سأل الغورى أن يجعل له في المدرسة مكاناً يدفن فيه إذا مات ، فمنعه الغورى من ذلك ، فمنع الله تعالى الغورى من الدفن في مدرسته ، وصار لا يعرف له مكان قبر ، فعد ذلك من العبر ، انتهى .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشر سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وكانت صفته طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهاباً جليلاً ، بجلاً في المواكب ، مليء العيون في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال ، لكان خيار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطاني ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حدرات ، وقدامه طوالتان خيل ، بسروج ذهب وكنائش ومياتر زر كرش .

وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض .

وكان يشد في وسطه حياصة ذهب، عوضاً عن الشد البعلبكي . وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر ، والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفاً في مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم ، وربما كان يميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشر الأماجم . وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطيوار المغردة ، ونشق الأزهار المعطرة والبخور . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهماً في الأكل ، وكان يغوى طيور السموع ، وكان يعرف بقا نصوه من ببيردى الغورى .

واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية ، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده، لم يختلف عليه اثنان، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم، فخرج إليه، وجرى له هذه الكاينة العظمية التي لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك . وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وأما ما عد من مساوئه ، فإنها كثيرة لا تحصى ، منها أنه أحدث في أيام دولته من المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر، وهو مبلغ ألفين وسبعائة دينار، فكانت السوق تباع البضائع بما تختاره من الأثمان، ولا يقدر أحد يكلمهم ، فيقولون : علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك . وقرر على دار الضرب ما لا له صورة في كل شهر فكانوا يصنعون في الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشرف في الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثنا عشر نصفاً . وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين، فلعب في أموال المسلمين، وأتلف المعاملة، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ،

فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ، ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الرئيس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة ، وأقام بها أياماً ، وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ، ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور وأناث ، فيمنعهم من ميراثهم ، ويخالف أمر الشرع الشريف .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، يقرر عليهم الأموال الجزيلة ، فتفرده الكشاف ومشايخ على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ كل منهم المثل أمثال فضعف أمر الجند من يومئذ ، وتلاشى حال البلاد .

وكان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع ، وأخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدر معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهي ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على

بيع الملح ، ووجدد في أيامه غدة مكوس من هذا النمط ما لا فعلة هناد في زمانه .

ولم يفتته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازى والحليبي التاجر وغيره من التجار ، وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه ما لا له صورة ، ودخل في جملة ديوان حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، منهم القاضى بدر الدين بن مرهز كاتب السر كان ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وجماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاتيهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فك رخام قاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع الممتدات التى كانت تسامح بها الناس من الديوان المفرد من تقادم السنين ، ووجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، فكانت المقطعون تقاسى من البهدلة ما لا خير فيه .

ثم تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة ، والنحولة الذين فى سواقى الميدان ، بجملة روث الأبقار وما يتحصل من ذلك كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة واحدة، وصادر حتى المغانى النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة

بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن في كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخراف به الحيطان بالذهب والسقوف ، وهذا عين الإسراف لبیت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات ، كما يهرب الصغير من الكتاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمور القتلاء ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليهم .

وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك كله . حتى كانت تشتري العلامة العتيقة بأشرف حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك . انتهى .

المقتبس الخامس

اسماء بعض المنقولين من القاهرة إلى إسطنبول

بأمر السلطان سليم الأول العثماني

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة ومضت على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر في سالف الأزمان .

وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والماليك السلطانية في فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر ممن ليس له ذنب ، فراح ظلما ، فقتل من الناس ما لا يحصى عددهم ، ولعب السيف في أهل مصر سبعة أيام .

وقتل فيها ثلاثة سلاطين ، وهم الأشرف الغوري ، والأشرف طومانباي ، والظاهر قانصوه ، قتل في البرج بشفر الإسكندرية . وتغيرت فيها ثلاث دول

وخرب فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش مالا يحصى قدره ، وتيتم فيها أطفال ، وترمل فيها نسوان ، وجرت فيها مفاسد كثير مالا يسمع بمثلها .

ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه إلا في زمن البيخت نصر البابلي ، فإنه أخرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا ، فكان النيل يطلع وينطبط وينفرش على الأرض فلا تجد من يزرع أراضي مصر عليه ، وهذا كله كان بتقدير الله تعالى فيما جرى على أهل مصر ، ونسأل الله حسن الخاتمة ورد العاقبة إلى خير .

وقد وقفت على كتاب من تأليف الشيخ جلال الندية الأسيوطي رحمة الله عليه ، ذكر فيه أن في هذا القرن يبدوا الخراب في مصر من سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر إلى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى يفنى من أهل مصر نحو النصف ، وقد ظهرت علامة ذلك في هذه السنة .

ومن أعظم مساويء سليم شاه ابن عثمان خروج أعيان رؤساء الديار المصرية ، وتفيهم إلى إسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر ذكره .

ذكر من توجه في هذه السنة إلى القسطنطينية

من أعيان رؤساء الديار المصرية ، وهم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدي خليل وها أبو بكر وأحمد ، والمقر العلاءي علي بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء الجناب الشرفي يونس بن الأتابكي سودون العجمي ، والجناب الناصري محمد بن العلاءي علي بن خاص بك صهر الأشرف قايتباي .

ومن الأمراء يبردي من كسباي الذي كان باش المجاورين أحد الأمراء العشرات ، وقرا كز الجكمي أحد العشرات محتسب مكة ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة ، وجاني بك دواذار الأمير طراباي .

ومن أولاد الناس الشهابي أحمد بن البدري حسن بن الطولوني معلم

المعلمين ، ويوسف بن أبي الفرج الذي كان نقيب الجيش ، ويحيى بن نوكار الذي كان دوا دار الوالى .

ومن نواب السادة الشافعية الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن روق ، والشيخ شمس الدين الحلبي ، والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر ، والشيخ بدر الدين البلقيني ، والشيخ برهان الدين الأنباسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين ابن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المقسمى العزيرى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى بن الشارمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ زين الدين الشرنقاشى ، والسيد الشريف البردبني ، والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد ابن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الأبخادى .

ومن نواب السادة الحنابلة الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنيدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه إلى إسطنبول من السادة المباشرين السلطانية ، وهم المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين بن كمال الدين ، والجناب شمس محمد بن القاضى ، وصلاح الدين بن الجميعان ، والقاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجميعان كاتب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر ابن الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمس محمد بن البارزى ، والقاضى ابو البقا السيرجى من ديوان جيش الشام .

ومن كتاب الممالك : شمس الدين محمد بن نخر الدين كاتب المالك ، وسعد الدين ، وفرج ، وكريم الدين وفتح الدين من أولاد ابن نخبرة وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ويحيى الدين بن بهاء الدين ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الشراييشى ناظر أوقاف الزمامية ، وشمس الدين

محمد من أولاد ابن البقرى ، وأولاده ، وأبو الحسن بن الرقيق ، وعبد العظيم بن أبي غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانا ، وولده زين ، وتاج الدين ، وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الأستاذار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأبوالسعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين الغزى الموقع ، وأحمد بن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وولى الدين ناظر المواريث وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاى الدين ناظر الخصاص ، وبركات المنوفى ، وسعد الدين المنوفى أيضاً ، ومحمد بن الكوير ، وأحمد بن حشو الطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبدالفتاح ، ومحمد بن أبي غالب ، وصفى الدين ، وابن الهيصم ، وتاج الدين بن البقرى ، وشقيقه ، وبركات بن سلما ، وكال الدين الناصرى ، وحامل المزرة زين ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين ما يحضرنى اسمائهم الآن .

ومن أعيان الناس المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى ، والمهتار سليمان ، ومحمد بن يوسف الدين كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبي السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزرد كاشية يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ، وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السيوفية الصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى وأولاد ابن نفيس .

ومن تجار الوراقين ناصر الدين الماوردى ، ومحمد المسكى الأسود ، وعلى بن خشيم .

ومن تجار سوق مرجوش ابن الشقيرة ، وأبو الفوز بن الحصانى ، وبدر الدين الغزولى شيخ سوق الغزل .

ومن تجار المغاربة الشيخ سالم ، وسعيد التاجورى ، وسعيد اللبدي ،

وأبو سعيدة، وآخرون لم يحضرنى أسماؤهم من التجار بأسواق القاهرة وغيرها من التجار الذين توجهوا إلى إسطنبول .

ومن الخدام مقدم المالك سنبل العثماني ، ونائبه جوهر الرومي ، وقيل إن جوهر توجه إلى القدس بطالا ، وآخرون من الخدام والسقاة .

ومن البرددارية كمال الدين برددار أمير كبير ، وعبد القادر ، وابن المنقار ، وشهاب الدين أحمد الجارحي قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ، وابن الشيخ ، ومحمد بن رسلان ، وناصر الدين إسماعيل ، ومحمد الكاتب ، وأبو بكر ، وابن السميني ويحيى بن يحيى ، وبركات ابن المبيض ، ومحمد بن الجبان ، وبركات النائب ، وسعد الدين البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطاره ، ومحمد بن فرو شيخ جهات المطرية ، وآخرون ما يحضرنى أسماؤهم الآن .

ومن رؤس النواب فرج بن البريدى رأس نوبة حجاب الحجاب ، وآخرون من رؤس النوب ، ومقدمين السقاين ، عبيد ، وأبو الخير ، وابن فريخ الفار .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين ، والمرخمين والمبلطين والخراطين ، والمهندسين والحجارين والفعلة جماعة كثيرة ما يحضرنى أسماؤهم الآن . وزعموا أن الخندكار ابن عثمان يقصد أن ينشئ له مدرسة في اسطنبول ، مثل مدرسة السلطان الغورى التي في الشرايشيين .

وتوجه إلى إسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرة ، ومن طائفة النصراني بانوب الكاتب في الخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ المكين السكندرى وولده ، وآخرون من النصراني واليهود ما يحضرنى أسماؤهم .

فيقال إن مجموع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى إسطنبول دون آلاف إنسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغر رضع ، وشيء كبار .

ولم تقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمعت

بمثلها في التواريخ القديمة ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا : ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهلها وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يطوؤوها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكانت سنة مشومة على أناس ، ومباركة على أناس ، وسعدت فيها أناس ، وتعست فيها أناس . وكانت سنة مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه في جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد . ووضعوا أيديهم على رزق الناس والإقطاعات ، ثم استدرجوا إلى أخذ أموال الأوقاف ، وصار ليس على يدهم يد يفعلون ما يشاؤون من هذا النمط ، فغنموا في هذه السنة أموالا جزيلة من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ، فكان مجيء ابن عثمان إلى مصر رحمة في حق المباشرين وغيرها من الناس ممن أودعوا عندهم الأمراء والعسكر الأموال والقماش وقتلوا في الواقعة . فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راح . فكان كما يقال في المعنى : مصائب قوم عند قوم فوائد . انتهى ذلك .

المقتبس السادس

اسماء بعض العائدين

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيرة من اسطنبول ، ممن كان قد نفي إليها من إعيان الديار المصرية . منهم ، كمال الدين بن معين الموقع ، وابن نصر الله . مرعى الذي كان من جماعة الأتابكي سودون العجمي ، وأحمد الصيروتي .

وحضر محمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن قطارة الذي كان من جماعة المحتسب ، وحضر محمد بن إبراهيم الذي كان متحدثا على الزمامية . وحضر محمد بن القاضي نخر الدين ابن العمريطي ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضروا أسماءهم الآن ، والكل فروا من أسطنبول من غير إذن من الخندكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفية والحدادين والنجارين والبنائين والمرخين ،
وغير ذلك ممن كان توجه اسطنبول . فحضروا الكل هاربين من غير علم
الخندي كار .

فلما حضروا اشيع بموت ابن شقيرة التاجر الذي من سوق مرجوش ،
وأشيع بموت جماعة كثيرة هناك من أعيان أهل مصر .

وقبل ذلك قدمت الأخبار بوفاة جاني بك داوادار الأمير طراباي ، وكان
من وسائط السوء ، ومحمد بن يوسف الذي كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط
السوء أيضا . وتوفي محمد المسكي الذي كان من سوق الوراقين . وتوفي هناك
جماعة كبيرة ما يحضرنى اسمائهم الآن .

د . محمد مصطفى زيادة